

مطالعات في التصوف الاسلامي

تمهيد — كشف المحجوب — عوارف المعارف

— ١ —

١ — يمتاز العصر الذي نعيش فيه بانه عصر نهضة فكرية تناولت الحياة العامة والخاصة للأفراد والجماعات ويمتاز هذا العصر أيضاً بما استحدث فيه الباحثون من مناهج علمية لها قيمتها وأثرها في كشف الحقيقة التي يقصد اليها كل باحث . على أن هذه النهضة مهما تكن عامة شاملة ، وهذه المناهج العلمية الحديثة مهما تكن دقيقة منتجة ، الا أننا لا نزال نرى أن في تاريخ الفكر الاسلامي ناحية خصبة ممتعة طريفة قد أعرض عنها الباحثون من الشرقيين اعراضاً هو أقرب ما يكون الى الاهمال الشنيع منه الى أى شئ آخر . على حين ترى الباحثين من المستشرقين قد عنوا بهذه الناحية عناية خاصة فائقة . فكشفوا عن خباياها وأظهروا ما اشتملت عليه من فكر عميق وشعر رقيق . وأحسوا بآثاره في نفوسهم هذه الآثار من متعة عقلية ولذة شعورية . هذه الناحية التي أهملها الشرقيون وعنى بها المستشرقون هي ناحية التصوف الاسلامي وما أنتج فيه من مؤلفات لها مكانتها الأدبية ، وقيمتها الفكرية بين ما أنتج العقل البشري عامة ، والعقل الاسلامي خاصة .

وليس أدعى للأسف ولا أبعث على الحسرة من أنك اذا أردت أن تعرف شيئاً عن تاريخ التصوف الاسلامي : نشأته وتطوره ، وان تلم الماما كافياً بمن ظهر من متصوفة المسلمين في عصور الاسلام المختلفة ، وما صدر عن هؤلاء المتصوفة ، من شعر ونثر وإشارات وإيماءات تلمس هذا كله عند المستشرقين في لغاتهم الأوربية المختلفة . وتلمس هذا كله بصفة خاصة عند ماسينيون في الفرنسية وعند نيكلسون في الانجليزية . وأنت لاشك واجد عند هذين العالمين ما تطمع فيه من بحث منظم وأسلوب علمي دقيق ، وتصوير جميل بدیع لهذه الشخصيات الفذة العجيبة التي ظهرت إبان العصور المتعاقبة لتاريخ التصوف الاسلامي . وانك حين تتصفح كتاباً من كتب المستشرقين فليس من شك في أنك ستعجب بمهارتهم الفائقة في البحث وبمقدرتهم الغريبة على جمع الأخبار ولم شعث الآثار وتحقيقها على ضوء المنهج العلمي الحديث بحيث ينتهون من هذا كله الى الحقيقة الثابتة التي لا يأتيناها الشك من بين يديها ولا من خلفها . وليس من شك أيضاً في أنك ستقدر

ما بذل هؤلاء القوم من جهد ، وما تحملوا من مشقة وألم في سبيل اخراج ما أخرجوا من أبحاث منظمة وأسفار قيمة . وليس أدل على عناية المستشرقين بالحضارة الاسلامية عامة وبالتصوف خاصة من أن أحدهم وهو العالم الكبير والباحث الجليل الميسولويس ماسينيون قد قضى أعواماً طويلاً يجوب فيها البلاد الاسلامية المختلفة باحثاً عن نصوص صوفية لم يسبق نشرها ، وقد وفق فيما قصد اليه توفيقاً عظيماً كانت ثمرته هذا الكتاب القيم المسمى « مجموعة نصوص لم يسبق نشرها تتعلق بالتصوف الاسلامي » . ناهيك بأن الميسو ماسينيون قد تعرض الى بحث شخصية قوية جداً وغريبة جداً من شخصيات التصوف الاسلامي . وأعنى بها شخصية الحلاج . فكانت ثمرة بحثه هذا السفر الضخم حقاً ، الخالد حقاً ، في تحليل شخصية الحلاج ونفسيته ، والابانة عن مذهبه وعن رأى المدارس الاسلامية المختلفة فيه . وليس أدل على عناية المستشرقين أيضاً بهذه الناحية القيمة الممتعة من انهم قد عمدوا الى ما أنتج المتصوفة من مؤلفات فوسعوها درسا وتحليلاً . وما هي الا أن تناولوها بالترجمة الى لغاتهم وشرحوها وعلقوها عليها . وما هي الا أن طبعوها وأذاعوها في الناس . وما هي الا أن قرئت هذه المؤلفات وفهمت ونوقشت . وانتهى هذا كله الى أن اختلف المستشرقون حول هذه الكتب ففهم من تعصب لها ومنهم من تعصب عليها ومنهم من رأى فيها رأياً غير الذي يراه غيره . ومن هنا كثرت المؤلفات الأوربية في التصوف . على حين أنك اذا أردت أن تعثر على كتاب في العربية يعطيك صورة واضحة جلية لنشأة التصوف وتطوره في الاسلام فانك لن توفق الى بغيتك . ذلك لأن الشباب المثقف عندنا قد ضاق صدره بكتب التصوف القديمة كما ضاق بغير كتب التصوف من الآثار الاسلامية وغير الاسلامية ، فأنت اذا طلبت الى شاب مصري مثقف أن يطالع كتاباً عربياً قديماً في التصوف فمن المؤكد أنه لا يكاد يقرأ منه فصلاً . استغفر الله - بل أنه لا يكاد يقرأ منه صفحة أو صفحتين حتى تضيق نفسه ، ويخرج صدره ، ويستولى عليه الملل والسأم ، فيلقى بالكتاب القاء على أن لا يعود اليه مرة أخرى . ولعل عذره في ذلك هو ان ما تكلفه قراءته وما تحمله مشقة مطالعته انما هو كتاب مختلط مضطرب لم ترتب أبوابه . ثم هو ضخيم طويل ان عرف أوله فقد لا يعرف آخره . وأكبر الظن أن شبابنا حين ينظر الى الآثار الاسلامية هذه النظرة التي هي أقرب الى الازدراء منها الى أى شئ آخر . أقول ان شبابنا مسرف على نفسه وعلى الحضارة الاسلامية . مسىء الى نفسه والى الحضارة الاسلامية . ولو قد تجمل

بالصبر على ما يقرأ وتضرع بالثبات امام ما يقرأ . واستعان بالفهم المستقيم لما يقرأ . لانه انتهى منه الى ما يشبع رغبته ويرضى حاجته العقلية والشعورية . واذن فما أجدر شبابنا المثقف أن يعمد الى هذه النواحي المهمة من تراثنا المجيد فيتناولها بحثاً وتحليلاً ، وتفسيراً وتأويلاً ، بحيث يخضعها لمناهج البحث الحديث فهى كفيلة بأن تكشف له عن وجه الحق فيما يقرأ ، وهى كفيلة بأن تشعره بما فى قراءته من لذة قوية ومتاع خصب .

وأحب أن أحدثك فى سلسلة من الفصول عن التصوف الاسلامى . فأتناول فى بعضها الحديث عن بعض المؤلفات الصوفية التى أودعها أصحابها مسائل التصوف ونظرياتة . وأتناول فى بعضها الآخر تحليل بعض الشخصيات القوية التى ظهرت فى تاريخ التصوف الاسلامى فكان لها أكبر خطر وأعظم أثر . وبهذا أكون قد قمت بجزء من الواجب على كل شاب مصرى مثقف أن يقوم به نحو هذا التراث الاسلامى المجيد . وأحب بعد هذا كله أن أتناول فى هذا الفصل كتابين عنى بهما المستشرقون فترجوها الى لغاتهما ، وذلك لأن هذين الكتابين يعدان من أهم الكتب التى تظهرنا على المسائل الصوفية ، والاشارات الباطنية ، وما ينسب الى المتصوفة من أقوال فى هذه الاشارات وهذه المسائل . هذان الكتابان أحدهما « كشف المحجوب » للهجویری .

والثانى « عوارف المعارف » للسهروردی

٢ - أما مؤلف « كشف المحجوب » فكان معاصراً للقشیری الصوفى الفارسى الذى عاش بنيسابور وتوفى عام ٤٦٥ هـ (١٠٧٢م) والذى يعرف بمؤلفه المشهور « الرسالة القشيرية » . ولم تكن لكشف المحجوب هذه الروح النقدية المؤسسة على قواعد علمية راسخة ، فهو كتاب من هذه الكتب التى يمتاز مؤلفوها بالقدرة على جمع المسائل الصوفية وأخبار المتصوفة ، ووضعها فى أقسام وأبواب . هذا فضلا عن أن هذا الكتاب قلما يذكر فيه شئ عن تواريخ الأشخاص الذين يتحدث عنهم . ولعل أكثر ما يذكر لك عن الشخص الذى يعرض له قولاً أو قولين من هذه الاقوال التى تنسب اليه . وانه ليكتفى بهذا القول أو بهذين القولين فيعمد اليهما بالشرح والتفسير ولكنه شرح غامض وتفسير مبهم . ومن الحق كل الحق ألا يثق الباحث المدقق ثقة تامة بكل ما ينسب الى المتصوفة من أقوال وما ينسب حولهم من قصص كتلك التى يذكرها الهجویری فى كتابه . وانما هو مضطر على العكس الى ان يخضع هذه الاخبار وهذه القصص وهذه الاقوال الى البحث العلمى الصحيح فينكر بعضها حين يلزم الانكار ويشك فى بعضها الآخر حين يجب الشك . ويرجح طائفة منها اذا كانت هناك حاجة الى الترجيح ويؤكد طائفة أخرى حين لا يجد الشك

سبيلا الى ما يؤكد بحيث ينتهى من هذا كله الى الحقيقة الثابتة الراسخة التى لا تقبل شكاً ولا تحتمل جدلاً . واذا كنا نلجس فى تضاعيف المؤلفات الصوفية امورا من شأنها ان تحملنا على التفكير وتدعونا الى الشك فلا بد لنا من أن نقف من هذه المؤلفات موقفا ان لم يكن موقف المتشكك المرتاب ، فلا أقل من أن يكون موقف المحقق المدقق الذى لا يغنى من وراء تحقيقه وتدقيقه الا وجه الحقيقة خالصا صافيا لا تشوبه شائبة . ولعل الهجویری نفسه قد قدم لنا مثالا من شأنه أن يحملنا على الشك فى صحة بعض ما يذكر فى كتب التصوف القديمة . فهو حين يتحدث عن الخلووى يقول : « هو مترجم الاولياء المعروف ولكن يفسر المذاهب الصوفية الاساسية فقد نسب الى شخصيات عديدة قصصا ألفها هو . . . » . ومهما يكن من شئ . فذلك مسألة نتركها الآن لنعرض الى تلخيص الكتاب الذى نحن بصددده .

يرجع الهجویری بداية التصوف الى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، كما يذكر تحت اسم (أهل الصفا) فريقا من الصحابة الذين وفقوا حياتهم على التضحية وكانت معيشتهم اقرب الى الاعراض عن الدنيا والزهد فيها ، منها الى الأقبال عليها والميل اليها . ولعل أشهر هؤلاء الصحابة رجلا ن : أحدهما بلال الحبشى والآخر سلمان الفارسى .

أما فى الجيل الأول من التابعين فاقوى الشخصيات التى ظهرت وذكرها الهجویری شخصية الحسن البصرى . وليس ثمة شك فيما لهذه الشخصية من أثر قوى وخطر عظيم فى تاريخ الحضارة الإسلامية . فاسم الحسن البصرى يذكر على رأس دراسات اسلامية متعددة . فهو يذكر فى دراسة القرآن والنحو وعلم الكلام وغير ذلك من فروع الثقافة الاسلامية المتنوعة .

ويذكر مؤلف « كشف المحجوب » بعد جيل الحسن البصرى أربعة وستين صوفيا أخذ يعددهم حتى دنا من العصر الذى كان يعيش فيه . وانك تراه يذكر فيمن يذكر من هؤلاء المتصوفة أبا حنيفة وابن حنبل وداود الطائى . أما الصوفيون الحقيقيون ، وبعبارة أدق المتخصصون - فمن بين الذين يذكرهم ذوالنون المصرى وابن أدهم والسطامى . وهذه الأسماء الثلاثة كثيرا ما يتردد ذكرها فى المؤلفات الصوفية نظرا لما لها من قيمة ولما لعبت من أدوار فى تاريخ التصوف الاسلامى . ويذكر الهجویری بعد هؤلاء عشرة من المتصوفة المعاصرين له أشهرهم القشیری . ثم فريقا كان لا يزال حيا وقتئذ فى الأنحاء المختلفة لبلاد الفرس .

ويأتى بعد هذا كله فصل طويل عن احدى عشرة طائفة صوفية وقد جعل لكل طائفة مقالا خاصا تناول فيه ناحية معينة من مذهبها . ويرى السواد الأعظم أن الخلاف الذى شب بين هذه

هذا الكتاب في مؤلفه عن الغزالي ثم أعاد الحديث عنه مرة أخرى في كتابه «مفكرى الاسلام». فهذا كله يظهر على ما للكتاب من خطر وما فيه من غناء.

أما مؤلف الكتاب فهو شهاب الدين السهر وردي أحد أعقاب أبي بكر رضى الله عنه. كان تلميذا لعمه أبي النجيب وللصوفي المعروف عبد القادر الجيلي. وكان شيخا لمشايخ بغداد. التف حوله عدد ضخم من المتصوفة والزهاد. وله غير مؤلفه الذي نحن بصدد طائفة لأبأس بها من الأشعار. مات في بغداد سنة ٦٣٢ هـ.

وأبو النجيب عم المؤلف الذي أشرنا اليه آنفا صوفي أيضا. أورد شهاب الدين ذكره كثيرا في كتابه فهو يبدأ كل أبواب هذا الكتاب أو جملها بهذه العبارة: «حدثنا شيخنا شيخ الاسلام» يعنى عمه. وقد كتب عنه ياقوت في معجمه مقالا بديعا اعتبره فيه أذكى أبناء سهر ورد. سافر في شبابه إلى بغداد حيث درس الشريعة والفقه. ثم إلى أصفهان. وكان يعمل كسقاء ولم يكن يعيش إلا من عرق جبينه. وبعد أسفاره هذه عاد إلى بغداد حيث كان يلقي تلاميذه الذين درسوا عليه الشريعة وحيث تولى رئاسة النظامية. ثم قصد بعد هذا إلى دمشق سنة ٥٥٨ هـ حيث أولاه نور الدين الزنجاني شرفا كبيرا. وهناك أسس طائفة من الصوفية. ويعقب ياقوت على كلامه عن أبي النجيب بقوله: أن ابن أخيه مؤلف عوارف المعارف كان من أبرز شخصيات عصره لما له من مواهب. ولما كان عليه من صلاح وتقوى. أجله الخليفة الناصر وخلع عليه لقب شيخ مشايخ بغداد. ولهذا الخليفة ألف شهاب الدين السهر وردي كتابه عوارف المعارف. ويقول عنه ابن خلكان في وفيات الأعيان أنه كان فقيها شافعي المذهب تخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة وصحب عمه أبا النجيب والشيخ أبا محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي.... ولد بسهر ورد في أواخر رجب سنة ٥٣٩ هـ وتوفي في المحرم سنة ٦٣٢ هـ.

هذه ترجمة موجزة لحياة مؤلف عوارف المعارف. أما الكتاب نفسه فقد بلغ من الخصوبة والطول بحيث أنه وضع في أكثر من ستين بابا. ولا بد لنا من وقفات عند أهم هذه الأبواب التي بسط فيها المؤلف منشأ علوم الصوفية، وآدابهم وأخلاقهم وأشاراتهم وأحوالهم ومقاماتهم. فكل أولئك مسائل خليقة بالبحث، جدرة بالدرس. وهذا ما أرجو أن أعرض له منذ الفصل التالي بحيث أكون لديك صورة صادقة لهذا الكتاب تتمكنك من أن تتعرف مكانته وتقدر قيمته وتبين ما له من خطر وما فيه من غناء.

محمد مصطفى حلى
ماجستير في الآداب

الطوائف لم يكن ذا أهمية وأنه ليس الا وسيلة يستعان بها على تفسير المذاهب المختلفة، فالطائفة الاولى مثلا تذكر الرضى من بين الأحوال بدلا من أن تجعله بين المقامات. ويعقب الهجورى على هذا بمقال عن الرضى. والطائفة الأخيرة تظهرنا على رأى المتصوفة في مسألة فلسفية نفسية ذات خطر. ذلك أنها كانت تؤمن بالتناسخ. ومن هنا ترى مؤلف «كشف المحجوب» يذبل كلامه عن هذه الطائفة بمقال عن الروح. وفوق هذا كله فإن المؤلف قد بسط مذهب المتصوفة في صورة أخرى موضوعة في احد عشر فصلا مثلها في هذا العدد كمثل الفصول التي سبقتها. وأنه ليجعل عنوان كل فصل من هذه الفصول هكذا: «كشف المحجوب الأول والثاني والثالث... إلى الحادى عشر» والمحجوبات هنا تقابل المسائل الجوهرية للدين الاسلامى (وحدانية الله - الايمان - الوضوء الصلاة... الخ) فكل مسألة من تلك لها تفسير صوفى. أو هي بعبارة أخرى تقابل فصلا من فصول التصوف. وانك لتلاحظ في هذا القسم حرية التفسير والتأويل التي اصطنعها المتصوفة في فهمهم للدين. فأنت ترى مثلا في صفحة (٣٠١) من الترجمة الانجليزية التي وضعها الاستاذ نيكلسون وطبعها ونشرتها لجنة احياء ذكرى جب: «الصلاة عبارة عن تعبير يجد فيه المريدون الطريق الموصل لله من البداية الى النهاية. وفيه تتكشف لهم المقامات. والطهارة للريدين هي التوبة. وأنت حين تولى وجهك نحو القبلة معناه انك تخضع نفسك للدبر الروحى. وأنت حين تصلى واقفا معناه انك تذلل نفسك. وتقابل تلاوة القرآن التأمل الباطنى. واطراق الرأس هو التواصل. والركوع والسجود هما معرفة الانسان لنفسه والتسليم هو الانفصال عن الدنيا. ويحل محل الاعتراف بالايمان الانس بالله» وآية ذلك هي أن كل حركة عملية يمكن تأويلها تأويلا صوفيا وان كل رياضة جسمية تقابلها عاطفة روحية.

٣- ولترك الآن كشف المحجوب لنقف وقفة قصيرة عند الكتاب الثانى الذى أريد أن أحدثك عنه وأعنى به «عوارف المعارف» ويمتاز هذا الكتاب بأنه أكثر تقسيما وأوفر تنظيما من سابقه. ثم هو أقدر على اظهارنا على منشأ العلوم الصوفية والابانة عن آداب المتصوفة ومذاهبهم وأخبارهم وأقوالهم بحيث يمكن اعتباره كتاباً تعليمياً بكل معانى الكلمة. وليس أدل على قيمة هذا الكتاب من أن ويلبرفورس كلارك قد ترجمه. ومن أن بعض المستشرقين ينظر اليه كأنه تحفة أدبية لها قيمتها بين الاسفار العربية الكلاسيكية التي تسودها روح المنطق ويسيطر عليها أسلوب البحث والاستقصاء. ومن أن البارون كارا دى فو قد تكلم عن